الإنسان في مواجهة النسيان والاستلاب

بقلم أديب نايف ذياب

(محاولة في استقراء المضمون الفلسفي لبعض اعمال نجيب محفوظ بعد النكسة) .

(الفتى : ينابيع الحياة الحقة مهددة بالجفاف،
أشواق القلب الخالدة يساومها
الضياع ، سحقا للوحشة التي تذبل
فيها معاني الاشياء .)
من : مسرحية « يميت ويحيى »
مجموعة «تحت المظلة» ص١٦٦

- ١ -

سنذكر في مستهل هذه المقالة ثلاث وقائع معروفة لدى اغلب الدارسين والقراء المهتمين بنجيب محفوظ وقصصه :

ـ تخرج كاتبنا من قسم الدراسات الفلسفية بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٤ ، وكان ترتيبه الثاني في دفعته .

ـ وقبل تخرجه وبعده (من سنة ١٩٣٢ وسنة ١٩٣٦) ، عني بالبحث والدراسة الفلسفية الجادة ، فنشر عدة مقالات متخصصة (يتجاوز عددها العشرين) في مجلة « المجلة الجديدة » التي كان يرأس تحريرها الاستاذ سلامة موسى . ومن هذه المقالات « فكرة الله في الفلسفة » ، « فلسفة الحب » ، (فلسفة برجسون .. ... الخ (١) .

ـ وبعد تخرجه ايضا عمل سنتين في الاعداد لرسالة ماجستير في الفلسفة (تتناول مفهوم الجمال لدى علماء المسلمين) تحت اشراف استاذه الدكتور الشيخ مصطفى عبدالرازق ، لكنه انصرف عن اتمامها وعن كتابة المقالات الفلسفية وتحول الى كتابة القصص القصيرة والطويلة (١) .

هذه المعطيات الثلاثة تصلح نقطة انطلاق لمثل هذا البحث ، وهي توضح في نفس الوقت مشروعيته . ان أصدار تلك الدراسات الفلسفية التي قام بها كاتبنا في شبابه تتردد على نحو خفي احيانا . وجلي احيانا اخرى ـ في قصصه قبل النكسة . فشخصية « الجنيدي » في « اللص والكلاب » و « عمر الحمزاوي » في (الشحاذ) واكثر شخصيات « أولاد حارتنا » تجسد افكارا فلسفية ، وفلسفية دينية في اغلب الاحيان اكثر مما تمثل انماطا واقعية من البشر . على ان تلك المعطيات الثلاثة وحدها لا تفسر لنا كل ابعاد المرحلة الجديدة في انتاج نجيب محفوظ والتي تبدأ منذ منتصف عام ١٩٦٧ ، اي بعد الواقعة المذهلة المخزية في تاريخنا الحديث : النكسة ، التي ارادنا نجيب ان نفهم مجموعته الاولى ، في هذه الفترة (٢) . على ضوء منها . اذ نراه لاول مرة يقدم لنا احد اعماله بمثل هذه الملاحظة : (كتبت هذه القصص في الفترة بين اكتوبر وديسمبر سنة ١٩٦٧) .

في هذه المرحلة يتجاوز نجيب اسلوبه المعتاد (الذي توصل اليه في « أولاد حارتنا » سنة ١٩٥٩ وما تلاها) والذي يقوم على العبارة المركزة والمناجاة الداخلية التي تنثال فيها تجارب الماضي للشخصية ـ بتكثيف شعري محكم ـ لتنير اسرارها الداخلية في الحاضر .. يتجاوز هذا الاسلوب الى آخر يقوم على الحوار العقلي الجاف الذي يكاد يخلو في معظم الاحيان من المناجاة والشعر ، وتتوارى فيه ملامح الشخصيات في ظلال الحوار المسيطر فلا نكاد نحس بسماتها الخاصة ولا بمواقعها في الزمان والمكان . ونجيب محفوظ هنا مثل سباح ماهر اجتاز بحرا متلاطم الامواج ليقف على شاطئه لاهثا دهشا في مواجهة الصخور النائئة ، اعني تلك الاسئلة القاسية الملحة والتي تتعلق بمعضلة الانسان في هذا العالم . انه يقف في مرحلته الجديدة وجها توجه مع معضلات الانسان الشائكة : الحياة والموت والحرية والهدف والعرفان والنسيان والاستلاب . وهذه المعضلات ذاتها هي التي تبرر ـ الى حد بعيد ـ اغفال القسمات والملامح التي تعطي للقصة صورة واقعية ـ او شبه واقعية ـ ذات اطار صلب ملموم يميزها عن المحاورات او التأملات الفلسفية . وهنا الغموض ليس ضرورة تكنيكية للبناء الروائي فحسب ولكنه ايضا سمة للقضايا والمعضلات التي هي اساس ذلك البناء . والاحداث في قصص هذه المرحلة مذهلة في غرابتها لكن قضايا الانسان هي ايضا غريبة ومقعدة الى درجة الاذهال . ولقد كان تناغم السرد مع المناجاة الداخلية التي تجيش في نفوس الشخصيات في قصص المرحلة

---

(١) ، (١) : باختصار عن مقالة الاستاذ : صبري حافظ : نجيب محفوظ بين الدين والفلسفة ، الهلال فبراير ١٩٧٠ ، ص ١١٦ ، ص ١٢١ . وهذه المقالة عرض ممتاز لجهود نجيب محفوظ الفلسفية في شبابه .

(٢) المقصود مجموعة « تحت المظلة » ، والملاحظة المذكورة في ص ٢ منها .

السابقة يلقي اضواء كاشفة افاد منها النقاد ليس في اقناع القراء والدارسين بان هذه القصص ممتعة وعميقة المغزى فحسب وانما ساعدتهم ايضا على استقراء المضمون الفكري والنمط الاجتماعي الذي تمثله كل شخصية او ترمز اليه . اما اعمال المرحلة الجديدة وهي تتخذ اشكال المسرحيات (او المحاورات) والقصص القصيرة والقصص المتوسطة فتبتعد عن اسلوب استبطان الشخصية ـ الا في عدد قليل منها ، مثل « حكاية بلا بداية ولا نهاية » وعلى نحو مبتسر ـ لتقوم على الحوار العقلي الخشن الذي يخلو من روح المجاملة والفكاهة ومن الاهتمامات العادية للانسان العادي : وهذا ما يجعل تفسير هذه الشخصيات صعبا في كثير من الاحيان .

يقف نجيب محفوظ في قصصه الجديدة خارج الوعي العملي للانسان . أي ـ بعبارة اوضح ـ متجافيا لهموم الانسان العابرة ، متعمقا في همومه الاساسية الكامنة خلف كل ارادة وشوق وفعل . (لم يعد يهمني الفرد كفرد له خواصه في زمان معين ومكان محدد ، ولكني جعلت أبحث فيه عن « الانسان في موقف ما » (٣) وفي هذه الحالة فمن المتوقع ان تأتي قصصه غير مسلية ، انها بحث وتجريب ونقاش لمشكلات الانسان ، وهي ـ بعد ـ دراما ذهنية تدعونا للتأمل واعادة النظر ومواجهة الالغاز الفلسفية ، ونادرا ما تنجح في اجتذاب تعاطفنا كما فعلت قصصه السابقة وعلى وجه اخص « اللص والكلاب » و « الطريق » و « السمان والخريف » .

وقد تشارك قصص هذه المرحلة ادب « اللامعقول » في سمة معينة : هي أن أغلبها ذو مناخ موحش تكتنفه الكآبة والتشاؤم والعنف، وتدخل فيه عناصر أخرى غير قابلة للتعقل لانها تند عن الخبرة الانسانية : كالصدفة ، والفوضى ، والموت الذي نصادفه بالجملة في الحلم والواقع : في الرغائب اللاواعية للشخصيات ، وفي الواقع الذي يتوق الى معناه عن طريق العقل ... لكن الحوار في هذه القصص ينأى بها عن « تيار اللامعقول » اذ نراه يرتبط ارتباطا عضويا ومن الصعب أن نعثر فيه على فجوات مما يجعل هذه القصص قريبة من المحاورات الافلاطونية ، من هذه الناحية على الاقل . لكنها من ناحية اخرى تختلف عن المحاورات الفلسفية الخالصة بانها لا تخلو من فعل أو حدث او تحول نفسي حاد .

وفي عصرنا الحديث الذي تحولت فيه الفلسفة ـ في بعض مدارسها على الاقل مثل الوجودية ـ الى الاهتمام بالانسان المشخص من حيث هو موجود فردي والاهتمام بخبراته الحية للوصول الى الدلالة العامة لوجوده وهمومه ومصيره ، نرى بعض الفلاسفة مثل سارتر وكامو ومارسيل قد اصطنعوا القصة والمسرحية لتوضيح او تجسيد افكارهم التي قدموها قبل ذلك او بعده على نحو تأملي في كتب فلسفية مستقلة . واغلب الدراسات الفلسفية التي تناولت الجوانب الفلسفية لهؤلاء المفكرين كانت تستعين ـ بشكل أو بآخر ـ باعمالهم الفنية ابتغاء توضيح منازع تفكيرهم (٤) . لكن مشكلتنا مع نجيب محفوظ انه ليس فيلسوفا بالمعنى الاصطلاحي المعروف وهو لم يدع ذلك . اما دراساته القديمة التي اشرنا اليها في البدء فهي دراسات اكاديمية متفرقة ولا تشكل نسقا متكاملا من الافكار ، كذلك من الصعب أن نتصور قارئا ومفكرا مثابرا كنجيب لم يتخل عن كثير من أفكاره التي نشرها في عهد الشباب : فما صعوده عبر مراحل مختلفة من أشكال التعبير القصصي الى مضامين انسانية عامة الا نتيجة لمعاناته الفكرية لمعضلات اكثر حداثة من تلك التي تناولها في مقالاته في ثلثي الثلاثينات الاولى.

ان كون نجيب محفوظ روائيا وليس صاحب فلسفة يجعل النتائج التي قد يتوصل اليها الباحث الفلسفي في قصصه الاخيرة عرضة للشك والريبة ، مهما توخى هذا الباحث من تدقيق او تعمق او حذر، وخاصة انه سيلجأ الى تثبيت دلالات رموز معينة يفترض فيها ان تتلون وتتغير ـ ان قليلا او كثيرا ـ تبعا لتباين شخصيات القصص ومواقفها.. وبالرغم من هذا فمما يغري بهذا البحث أن نجيب محفوظ في مرحلته الجديدة لا يقدم لنا شخصيات واضحة الملامح وانما شخصيات اعتمت ملامحها عن قصد ، واشباح شخصيات تجوس في اماكن مبهمة (٥) . كل ذلك يتم عن قصد لكي يصل الكاتب (والقارىء ايضا) من الموقف الجزئي الى دلالته العامة بالنسبة للانسان ومن المشكلة الى فحص امكانات الحل . ولا ادل على ذلك من أن كاتبنا يقفل تسمية الشخصيات في كثير من قصص هذه المرحلة مكتفيا باكثر سماتها عمومية ، ففي مسرحياته القصيرة التي تحتل النصف الثاني من مجموعة « تحت المظلة» يجري الحوار على السنة : الرجل ، المرأة ، الفتى ، الفتاة ، الصديق ، الرجل «١» ، الرجل «٢» ، العملاق ... الخ وبينما كنا نجد قصصه السابقة ملأى بالاسماء المحلية والمغرقة في المحلية: مثل حندس ، حنظل ، شرشارة .. الخ نراه في قصصه الجديدة يتخير لنا اسماء توحي بالشمول : مثل « عبدالله » في « حارة العشاق » ، و « عبد القوى » و (عبدالواحد) و(نوح)في قصة (موقف وداع) وهذه النقطة قد تبدو شكلية خالصة لكنها ليست كذلك اذا اضفنا اليها أن نجيب محفوظ يميل في معظم هذه القصص الى عزل الشخصيات عن المواقف الحيوية المألوفة ذات الابعاد السياسية والاجتماعية ليضعها في مواقف عامة تتعالى عن تلك الابعاد أو تلغيها : كالتساؤل : كيف يصل الانسان الى اليقين ازاء مشكلة ما (قصة « حارة العشاق ») ، وهل بامكان الانسان أن يهتدي الى « اصله» او الى تعيين ماهيته الحقيقية اذا كان يرزح تحت وطأة ظروف معينة .

ـ (قصة « الرجل الذي فقد ذاكرته مرتين ») ، وهل بامكان الانسان استرجاع ذاته وحريته اذا كان على وعي بفقدهما ؟ ـ(قصة « موقف وداع »)، وهل باستطاعته ان يتعالى على هموم الحياة ليصل الى حالة « اللاكتراث » بالفعل ـ (قصة « نافذة في الدور الخامس والثلاثين ») .

كل هذا يدعونا للقول بأن نجيب محفوظ قد تجاوز مرحلة « الواقعية الجديدة » الى مرحلة اخرى متميزة هي « المرحلة الفلسفية او الميتافيزيقية » ، ولكن ارهاصات هذه المرحلة كانت تتبدى في قصص المرحلة السابقة ابتداء من « اولاد حارتنا » التي نشرت مسلسلة في الاهرام سنة ١٩٥٩ وانتهاء بمجموعة « خمارة القط الاسود» التي نشرت سنة ١٩٦٩ (٦) . ففي تلك القصص نعثر على شذرات فلسفية تتناثر في الحوار وفي المنولوجات الداخلية ، وما دامت مسألتنا التي نتصدى لها هي « المضمون الفلسفي » فان أمثلة من تلك الشذرات تغري بالوقوف عندها)

(يقول البارمان لصديقه : الموت لا يجيء الا مرة واحدة ، واذا جاء أعقبته سعادة كبرى .
ـ ها أنت تتحدث عما وراء الموت !

---

(٣) من جواب نجيب محفوظ على سؤال للدكتورة لطيفة الزيات، الهلال ، فبراير ١٩٧٠ ، ص ٤٦ .

(٤) على سبيل المثال فان ريجيس جوليفيه في كتابه المذاهب الوجودية (ترجمة فؤاد كامل سنة ١٩٦٦ . للدار المصرية للتأليف والترجمة) يجعل البحث في رواية سارتر « الغثيان » مدخلا لفهم فلسفته . (انظر ص ١٢٧ ـ ١٣٤) .

(٥) انظر شخصيات « المهمة » من مجموعة تحت المظلة ،وشخصيات « الرجل الذي فقد ذاكرته مرتين » من مجموعة حكاية بلا بداية ولا نهاية .

(٦) نشرت قصص هذه المجموعة قبل منتصف عام ١٩٦٧ في جريدة الاهرام ثم جمعت في كتاب سنة ١٩٦٩ .

ـ التتمة على الصفحة ـ ٦٧ ـ

الانسان في مواجهة الاستلاب

ـ تابع المنشور على الصفحة ـ ١٤ ـ

ـ من اين اتيت ؟ الا يشبه الظلام الذي أتيت منه الظلام الذي ستذهب اليه بعد عمر طويل ، وقد امكن أن يخرج من الظلام الاول حياة ، فما يمنع ان تستمر الحياة في الظلام الثاني) (٧) .

وهذا الحوار ، أو الجملة الاخيرة منه على الاصح ، تختصر احدى حجج افلاطون على خلود الروح الانسانية (٨) . وحتى في عبارات نجيب التي تبدو اكثر براءة او ابتعادا عن الفلسفة نلمح ((رؤيـــة)) ثيوصوفية (فلسفية دينية) رحبة كالعزاء الذي تبعثه في النفس مرثاة شجيـــة :

(.. وعند ذلك قرأ الشيخ سورة الفتح ، وعلقت المصابيح بجذع النخلة ، وهتف المنشد : يا آل مصـر هنيئا فالحسين لكم ..) (٩) .

ومن الواضح ان للعبارة السابقـة خلفيتها فـي القرآن وتراث الصوفية ، وفي رحلة رأس الحسين ابن علي من ديار الشام الـى فسطاط مصر .

ان تقمش مثل هذه الشذرات ابتغاء تفسيرها واحالتها الى مظانهـا التراثية هو بالطبع بحث فلسفي ، وقد ينم عن براعة في البحث أو حذلقة ، لكنه ، على أية حال ، ليس بحثا في مضمون القصة ودلالتها الفلسفية ، لان اقتطاع مثل هذه الشذرات من سياقها هو افتئات على مضمون الموقف العام او الموقف الكلي في القصة والذي هو ((كل لا يتجزأ)) وهو الذي يعطي لكل عنصر داخل في البناء الروائي وظيفته التعبيرية ودوره . وإذن فليس امامنا الا طريقة واحدة اذا اردنـا الوصول الى الابعاد الفلسفية لهذه القصص ، وهي : أن نتبصر في كل قصة مضمونها الاساسي ودلالتها الفلسفية ، مرتكزيـن في كل ما نذهب اليه الى القصة ذاتها حتى لو اضطررنا الى تحوير او توسيع بعض المفاهيم الفلسفية كي تنتظم تلك الدلالة بدلا من ان نفرضها جـاهزة على مضمون القصة .

ـ ٢ ـ

((في قصة ((تحت المظلة)) (١٠) تجري امام اعين نفر من الناس ـ اجتمعوا عرضا تحت مظلة ـ احداث غريبة : لص ملاحق ، يأخـذ بعـد الامساك به يخطب في ملاحقيه ثم يرقص امامهم عاريا ، سيارتان تحترقان بركابهما ، رجل وامرأة يمارسان الحب عاريين تحت المطر ، رأس آدمي يتدحرج بدمه على الرصيف .. تترى هذه الاحداث والمتفرجـون تحت المظلة يتساءلون عن كنهها فلا يجدون جوابا مقنعا ، وهناك ، في الجهة الاخرى من الشارع . شرطي يقف أيضا متفرجا على هذه الاحـداث بلا مبالاة ، ويناديه احد المتفرجين تحت المظلة ليسأله عن حقيقـة هذه الامور الغريبة ، لكن الشرطي بدلا من ان يفسر الامر يسأل هؤلاء الناس ـ الذين اجتمعوا عرضا تحت المظلة ـ عن سر اجتماعهم وبقائهم هنا . فيقول احدهم : (لا يعرف احدنا الآخر) . ويجيب الشرطي : (كذبة لم تعد تجدي) ثم يسدد نحوهم بندقيته ويطلق النار فيسقطون جثثا هامدة (تتوسد الطوار تحت المطر) .

كتب نجيب هذه القصة بعد حرب الايام الخمسة او الستة من حزيران سنة ١٩٦٧ ، وتلك الحرب ـ كما هو معروف ـ كانت غريبـة في مدتها واصواتها ونتيجتها ، مثلما هي الاحداث في هذه القصـة. اما الشرطي في هذه القصة (مثلما هو في ((اللص والكلاب)) وفـي ((حنظل والعسكري)) وغيرهما) فهو رمز تفوة ((السلطة)) ولظهرها القمعي . انه حارس نظامها والمدافع عن وجودها . وليس من الصعب بعد ذلك ان نرى في القصة نقدا بارعا وعنيفا للسلطة او ((الانظمة)) التي سمحت للفاجعة (أو النكسة) بأن تكون وعلى تلك الصورة التي حدثت بها . وليس هناك من نقد أبلغ : فالنظام يقتل كل من تسول لـه نفسه التساؤل عن جلية الامر (١١) . في هذه القصة نعثر على نموذج يوضح لنا مفهوما فلسفيا سيتكرر ذكره في هذه المقالة الا وهو : استلاب الذات Sey - alianation ، ذلك النموذج هو الشرطي الذي يتخلى عن بعده الانساني ليتحول في بزته الرسمية الى اداة للقمع . وبعد ذلك سيكون واضحا اذا قلنا : ان الانسان المستلب هو الانسان الاداة ،

او (هو الذي يختلف في حقيقة أمره ووجوده عن حقيقة ماهيتـه أو طبيعته الاساسية ، او هو الانسان الذي يتعارض وجوده الفعلـي مع ماهيته الانسانية .) (١٢) ، فمعنى الاستلاب اذن يتوقف علـى تصورنا لماهية الانسان ، فاذا تصورناه على انه غاية في ذاته فـان الانسان كذات حرة مبدعة تكتشف امكانياتها مـن خلال فعلها وممارستها لهو انسان مغترب عن ذاتـــه (او مستلب الذات) . واذا تصورنا الانسان كذات حرة مبدعة تكتشف امكانياتها من خلال فعلها وممارستها فان الانسان الفعلي الذي يتخلى عن حريته ولا يمارس الابداع والخلـق (مهما كان نوعه) ولاي سبب كان لهو انسان مستلب الذات. واذا تصورنا الانسان على انه يتميز عن الحيوان بانه صاحب هدف)) او ((رسالة)) او (مهمة) عليه ان يقوم بها فان الانسان الفعلي الذي يعيش وجودا هامشيا بلا ((هدف)) أو ((مهمة)) لهو انسان مستلب الذات ايضـا .

استلاب الذات ، بهذا المعنى الواسع ، هو احد المواضيع الملحة التي يشف عنها نسيج عدة قصص من نتاج نجيب محفوظ فــي هـذه المرحلة . ومن خلال نماذج من هذه القصص سنتعرف على عدة انمـاط للانسان المستلب . ففي ((آه))ـ (١٣) ، وهي مسرحية او محـاورة ، يقدم لنا الكاتب فتى تستغرقه شئونه الخاصة ، نعرف من حوار المسرحية انه قضى يومه متسكعا بلا هدف : مر بميدان القلعة صباحا ، حيث

(٧) من قصة ((البارمان)) ـ مجموعة ((خمارة القط الاسود)) : ص ٤٦ .

(٨) انظر محاورة (فيدون) في كتاب ((محاورات افلاطون)) : ترجمة : د . زكي نجيب محمود (ص ١٩٥ ـ ١٩٨) ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ .

(٩) من قصة ((اللص والكلاب)) : ص ٨٣ . والمثال الاكثر تعبيرا عن هذه الرؤية الثيوصوفية يتجلى في نهايـة فصل ((ادهم)) من روايـة ((أولاد حارتنا)) ، عندما يكون ادهم على فراش الموت ويدخل عليـه ((الجبلاوي)) معزيا وغافرا له ذنبه ..

(١٠) القصة الاولى في مجموعة ((تحت المظلة)) : ص٤ـ١٦ (طبعة مكتبة مصر ، وهذه الملاحظـة تنطبق على الصفحات المذكورة في الهوامش الاخـرى) .

(١١) يفترض في عمل الناقد ان يكون تقويما وتوضيحا للعمـل الفني ، لكنه ينقلب احيانا ـ عن قصد او غير قصد ـ الى نوع مـن التعمية Mystication ومثال ذلك ما يقوله الاستاذ غالي شكري (في كتابه : المنتمي : ـ دراسة في ادب نجيب محفوظ ، دار المعارف طبعة : ٢ ، ص ٤٤٦) عن هذه القصة : (في هذه القصة العظيمـة تحت المظلة أودع نجيب محفوظ كلمته الاخيرة في كل شيء .. فـي التاريخ والحضارة والثورة) . فاولا لم تكن هذه كلمة نجيب محفوظ الاخيرة فقد كتب قصصا بعدها ولا زال يكتب ، وثانيا ليس هنـاك ما يدل على أنها كلمة (اولى أو اخيرة) في الثورة والتاريخ والحضارة. ان هذا التقرير غير مبرر .

12 - G . Petrouic : Alianaion , Ency , of Philosophy Vol .. I , P , 19 Macmilan , New York et London 1967

(١٣) المسرحية الاخيرة في مجموعـة ((تحت المظلة)) ، ص : ٢٨٥ ـ ٣٢١

زلت قدمه فوقع على ركبته لكنه لم يكترث لذلك ، وتناول فطورا عاديا بشارع محمد علي ، ثم انتقل الى مقهى الشمس ، وشهد بعد ذلك مزادا ومر بعيادة طبيب .. انه يعيش منعزلا عن الاخرين ، الا انه الآن وفي بدء المسرحية ينتظر فتاة على هضبة صخرية في الخلاء. الوقت يقارب الغروب . يحس هذا الفتى ان رجلا في الخمسين من عمره يتابعه منذ الصباح وهو الان يقف قريبا منه . يدور بينهما نقاش فنعرف ان الرجل (يحب الناس .. ويتصيد لحظة للتعارف بهم ، ولكن انانية الناس وحماقتهم تقف سدا في وجهه) يضيق الفتى به ، لانه يفسد عليه خلوته بفنائه التي سرعان ما تأتي وتضيق بالموقف كله فتترك فتاها وتذهب ، ويبقى الشاب فيعرض عليه الرجل ان يشهدا الغروب معا ثم يذهبا الى حانة ، لكن الشاب يرفض هذا العرض وعندما يهم بمغادرة المكان يقع على رجله المصابة ولا يستطيع النهوض ، يطلب المساعدة من الرجل ويعرض عليه صداقته مقابل ذلك . لكن الرجل يرفض اصطياد صداقته تحت وطأة الظرف ويتركه لليل والالم . ويأتي بعد ذلك رجلان يرتدي كل منهما لباسا احمر ويحمل مشعلا ويقفان الى جانب الشاب ثم آخران بلباس اسود ويحمل كل منهما سوطا وحبلا معقودا ، فيوثقان رجليه ويبدآن بمحاكمته في جو من التأنيب والعذاب . يطلب الشاب الرحمة وانعدل فلا يلقى الا الهزء . ويفهمانه ان ذنبه لا يغتفر : لقد نسي « المهمة » التي ارسل من اجلها ؟ المهمة ؟ يتذكر الشاب تدريجيا انه فعلا مكلف بمهمة. فيعتذر عن نسيانه لها بان (الزحام شديد .. يشتت الذاكرة) .. وعملي اليومي استغرق جل وقتي) . ويجيب الرجلان بان مثل هذا العذر غير مقبول لانه كان يجب أن يتذكر مهمته من خلال الاشياء التي صادفها : (الم يوح لك المطعم بشيء ؟ ولا المقهى ؟ ولا دار الآثار ، ولا صالة المزاد ، ولا عيادة الطبيب ؟) .

ذلك وجه من اوجه مأساة الانسان المستلب : ينسى « مهمته »في حياته القصيرة ، وسط الزحام (الذي يشتت الذاكرة) ، ويتجاهل « الآخرين » الذين كتب عليه ان يتواصل معهم كي يتعرف من خلال روابطه بهم وبالاشياء الاخرى على مهمته التي بها فقط يحقق ذاته . انه يتجاهل الاخرين لانه لا يعترف « بالعطاء » ، ومن ثم فهو لا يتوقع « الاخذ » الا في ظروف القهر والاضطرار . المستلب كما نراه في هذه القصة منشغل في تحقيق التوافق مع طبعه الخاص ، اما الاخرون (والاشياء) فهم مجرد زحام « لا يعني شيئا . ان « الاشياء بالنسبة للمستلب تفقد قدرتها على التنبيه والاستثارة ، ومن ثم فهو عاجز عن الانتفاع بالملابسات العارضة في الشروع بعمل ارادي مقصود . انه لا يستشعر في نفسه مثل هذا الاحتياج الروحي للعمل والخلق . ويرجع ابتعاد الانسان المستلب عن مهمته الى « النسيان » أو«التناسي» المغروس في طبيعة الكائن الانساني .. هذا ما توحي به المحاورة ،اما عن نوعية الظروف الاجتماعية او التاريخية التي تفرض مثل هذا النسيان وتغرسه عميقا في النفس فلا تحدثنا شيئا . لانها تجنح منذ البدء ناحية الميتافيزيقا وتتجاهل البنية الاجتماعية ، وهي بذلك تنأى بنا عن المفهوم الحديث للذات المستلبة وتحيلنا الى أفلاطون ودعواه القديمة : كانت نفس الانسان تعيش في عالم الخير والجمال مع الالهة ، ثم حلت في الجسد فالقى بسبب رغائبه الدائمة غشاوة الظلام امام بصيرتها فتنسى الخير والجمال وسائر « المثل » ، لكنها تتذكر ، وعن طريق التأمل تصعد من الجميل في الحياة الدنيا الى الجمال والخير في اسمى وجود لهما مع الالهة حيث كانت قبل ان تحل في الجسد . تلك الدعوى الافلاطونية اثرت في فلاسفة المسلمين. فابن سينا يشبه النفس ـ في قصيدته العينية الشهيرة ـ بحمامة نزلت الى الارض كارهة تظل تبكي ديارها الاصلية شوقا وحنينا اليها، وفي قصة رمزية له (هي« رسالة الطير ») نرى الطيور تمر برحلة فاسية ليخلصها « الملك الرحيم ، من حبائل الصيادين . ومغزى تلك الرسالة ان موقف الانسان في هذه الحياة هو موقف السجين ، وهو محتاج الى تخليص نفسه من الاسر بواسطة « الحكمة » مستعينا في ذلك بمن عانى نفس الموقف قبله (١٤) .ويبدو لنا ان نجيب محفوظ يختزن هذه الرؤية « انسينوية » بثوبها الرمزي ليقدمها على لسان (حامل المشعل) الذي يقول مخاطبا الفتى في ختام محاورة « المهمة »: « لم تحن أسراب الطيور المهاجرة الى اعشاشها التي تركتها في الجبل » .

كذلك فان مبنى هذه القصة يحيلنا الى التراث الديني ، فحاملا المشعلين وحاملا السوطين الذين يقومون بمحاكمة الشاب ، يذكروننا بملائكة « العذاب .. والحساب الذين يقومون بمحاسبة مبدئية للميت عندما يحل في القبر أول مرة (حسب ما ورد في بعض الاحاديث النبوية) » ، وهذا ما يزيد في وطأة الخوف الفاجع من الموت في وجدان الانسان المسلم .

ان الانسان لا ينسى غايته أو « مهمته .. بتعبير نجيب محفوظ وانما ينسى ايضا « اصله » : من اين أتى ؟ وبالطبع فان هذا السؤال يستتبع سؤالنا الاول في المهمة » : ولم أتى ؟ انهما وجهان لمشكلة واحدة : وجود الانسان في هذا العالم . ان نسيان او تناسي الانسان « لاصله » هو موضوع قصة « الرجل الذي فقد ذاكرته مرتين » (١٥). وهي تتدرج في بنائها لتصور لنا مبررات هذا النسيان . محور هذه القصة رجل فاقد الذاكرة (يحس بأنه لا شيء ينحدر من لا شيء وماض الى لا شيء) ، انه ـ بتعبير عامي ـ يبدأ من نقطة الصفر ، وسينتهي اليها كما سنرى في نهاية القصة وهذا ما يجعل الشعور بعدمية الحياة ـ في بعض قصص نجيب محفوظ ـ اقوى من المجابهة الحقة للاسئلة الجدية التي يصدر عنها . نبدأ مع هذا الرجل وهو جالس هناك في حديقة فندق مبهم والوقت ليل . (انه يستقبل الهواء الجاف المنعش الهابط من الجبل فيما وراء الخلاء) . وهو لا يعرف لذاته (اصلا ولا هوية ولا اسما) .. (وجدت نفسي في الخلاء، الجبل ورائي ، ومبنى وحيد أمامي هو الفندق ، لم اجرؤ على التوغل في المدينة فتسللت الى حديقة الفندق) ومما يلزمه بصفة عاجلة هو المأوى وهو الى هذا يتشهى ابنة صاحب الفندق التي يراها اثناء تناوله العشاء في الحديقة : (ما أجمل ان يحوز الانسان فتاة حسناء مثلها .. هكذا قال لنفسه بنبرة منتشية) . ونحن مع الفتى بعد ايام من سكناه بالفندق ، لم يعرف ذاته او اصله بعد لكنه يرتبط مع صاحب الفندق وابنته برباط المودة . والفتاة تمنحه العزاء والحذر معا على شكل تشجيع : (ستعرف نفسك عاجلا او آجلا) ، ويطلب يد الفتاة فيتردد والدها أول الامر لكن الفتاة تبدو راغبة فيه وتقول له (لايهمني ان تهتدي الى ماضيك أو يهتدي ماضيك اليك). انه يعيش نشوة الحب والقلق معا ، وعندما يتزوج من فتاته ويصبح شريكا في الفندق يتناقص هذا القلق شيئا فشيئا (فالبحث عن المجهول من ذاته لايكاد يخطر بباله الا اذا انفرد بنفسه) وزوجته ـ على أية حال ـ لا تتيح له هذه الفرصة كثيرا .

ويكتسح الكساد الفندق بعد مدة . ان الامان الزائف الذي اتخذه صاحبنا « حبل نجاة » ووجد فيه نوعا من السلوان يتداعى الآن . ولا يعود الفندق او الحب رابطة تربطه بزوجته وانما الاولاد

---

(١٤) انظر هذه القصة ، موجزة ، في كتاب ت.ج. دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام . (طبعة ٤ ، سنة ١٩٥٧) . ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر . والقصة يوردها المترجم .. د. محمد عبدالهادي ابو ريدة . في تعليقه : ص ٢٨٩ ـ ٢٩٢ .

(١٥) القصة الرابعة من مجموعة « حكاية بلا بداية ولا نهاية : ص : ٢٠٥ ـ ٢٤٣ .

ومستقبلهم . انه يكافح من اجلهم ويحارب في كل ميدان متناسيــاً مشكلته الاولى. يحارب الذيــن (يعملون للاستيلاء على فندقــه وامرأته) حتى لم يعد (لديه وقت ليحب امرأته) . وتحت وطأة الظــروف الواقعية التي تستلزمها حياة البشر يتحول اهتمام صاحبنا عــن الحب الذي شكل له ذاكرة بديلة الى شروط ذلك الحب (الطعام والامــن) ولكنه بهذا يبتعد اكثر عن التفكير في أصله . ومع مرور الزمن يمعن في هذا الابتعاد اكثر فاكثر ، اذ يصبح هو واسرته (محاصرين بالجوع والموت) ، وشروط حياته تفرض عليه ان يواجه العنف من الاعداء ، فيحدث ولده القادم في اجازة من دراسته الجامعية قائلا : (في غمار ذلك النزاع الاليم فقدنا أخويك العزيزين .. لقد ورطنا النزاع فــي أعمال عنف لم تجر لنا على بال .) ويمنيه ابنه بالعلم : (اذا صبرنا بضع سنوات يمكنني اعادة بناء الفندق بلا تكاليف .. ذلك هو موضوع رسالتي) والزوجة تأمل ، لكن الاب يتردد . في تصديق هذا الوعد. وتحس الزوجة ، بعد ذلك ان زوجها يفكر بالهرب ، فتكشف لــــه ــ ولاول مرة ــ انه كان زوجها قبل ان يفقد ذاكرته ، وقد هرب مــع راقصة ثم عــاد الى الفندق على الصورة التي بدأنــا بها ، واعيد الى حظيرة الاسرة بتلك التمثيلية المتقنة التي شارك فيها صاحب الفندق ابنته . هنا يستسلم الرجل للنسيان تماماً ، ويرى أن ليس لــه الا انتظار الابن الذي وعد ان ينقذ الاسرة من الجوع والعنف ويسير بها ــ بعلمه ــ الى شط السعادة . ومع الانتظار (يظل العنف يتراكم كالجبال) ومن خلال القصة التي حكتها الزوجة يعتقد الرجل انــه عرف ذاته . لكنه بهــذا يكــون قد نسي ((اصله)) او ((ذاته الأولى)) تماما ، فــلا وقت لديه ليفكــر فيها، والامــل بيقظتــه يشبه المعجــزة،

هكذا الامر اذن : عندمــا يحس الانسان المستلب بأزمته يلجأ الى الحب . وقــد يكون الحب احيانــا طريقــا للقضاء على استلاب الذات الانسانية . لكــن هذه القصــة تقول لنــا ان الحب في جانبــــه البيولوجي (الزواج فالانجاب ، ومــا يتبع ذلك من مكايدة لتأميــن البقاء) يجعل الانســان ممعنــاً في استلابه : فهــو من ناحية يجعلــه يلجأ الى العنف والقهر ويتلقاهما كشرط لاستمرارية البقاء وهو مــن ناحيــة اخرى يجمع أشواك التساؤل والبحث في نفس المستلب شيئا فشيئا ، والنتيجة هي ان الانسان يتحول الى انسان ((احادي البعد)): هدفــه الوحيــد تحقيق الامــن الزائف لنفسه ، ويفشل حتى فــي تحقيق مثل هذا الامن ،والاهم من ذلك يفشل في ان يكون ذاته .ويبدو لنــا ان تصور نجيب محفوظ لمأساة الانسان المستلب يبتعــد عن المفهوم الوجودي والمفهــوم الماركسي للاستلاب على السواء . فهناك فرضيــة مسيطرة نلمحهــا في كل ثنايا القصة (خصوصا في الحوار المبتسر الذي يدور بيــن شخصيتيــن غامضتين يتابعــان تطور حياة البطل من فــوق الجبل) ومؤدى هذه الفرضيــة ان للانسان ماهية اصليــة وبعداً روحيا . والقسم الاول مــن هذه الدعوى ترفضه الوجوديــة (هيدجر وسارتر) والقسم الثاني ترفضه الماركسيــة (١٦) . ومــن الواضح ان ما تنطق به قصتنــا السابقــة هــو ان الانسان يضطــر لالغاء ماهيته وبعده الروحي بسبب القسر الاجتمــاعي وضغوط الحياة المستمــرة .

وعلى نحــو اوضح تجسيدا ، يقدم لنــا نجيب محفوظ فــــي قصته ((العالم الاخر ١٧ . نمطا اخــر من انمــاط الانسان المستلــب طالب يتحول الى ((تابع)) في دار للدعارة ؛ وبهذا التحول يعتقــد انه (ولج ابواب الجنة .. حيث يتقرر المصير بقوة الرأس ، ويتخذ المركز المالي بالجراة .. ولا زيف على الاطلاق) . ونعرف انه هــارب من الاضطهاد السياسي ، فهناك (الطاغية يحكم والشرطة تجلد ، والانجليز يتربعــون فوق الرؤوس) . وهو يسخــر على الدوام مــن حكمة الناس واخلاقهم في ((العالم الاخر)) ويؤمن بالعنف اسلوبــا للحيــاة .. الحياة التي (لا يمكــن مواجهتها بقلب كاللبن) .ويصوذ نجيب مأساة هذا ((التابع)) من خلال تجربة محددة بعيدا عــن التجريد والرموز كمــا هي الحال في القصص التي عرضنا لها سابقا . فالمكــان والزمــان محددان في هذه القصة (او على الاقل نستطيع الوصــول اليهمــا من خلال الحوار) امــا الحوار فيهــا فيرتعش بالمفارقــات المضحكــة المؤسية والبراءة والشعر والشجن . يأتي الى الدرب الذي يقــوم فيه الماخور طالب ريفي جاد ، داعيــا الاضراب في غد بمناسبة مرور سنــة على الغاء دستور الامة فلا يلقى الا السخريــة من المعلمة صاحبة الدار وتابعها . لكــن ((التابع)) عندمــا يتعرف على الطالب بوصفه زميــلا قديمــا في الدراســة يدعوه للجلوس ، ثم يدعــوه الى معاشرة بغي راقصة . وكانت البغي هذه مريضة (تخوض وحدها معركة مجهولة مع مرض القلب بلا نصير وبلا استجداء) ، جلست الى جانب الشاب الخجول ، ولانه ذكرها بطفلها بكت . فيضربها ((التابع)) بوحشية : (فــلا وقت للبكاء ، واي ضعف يعترينا هنا يعني هلاكنا)، وتشتد نوبة القلب على البغي فتتأوه بعمق وتلقي برأسهــا على الكرسي، وعندمــا يقترب منهــا التابع ويجس نبضهــا يعلــن انها ماتت ،وينقلها الى غرفة داخليــة ، ثم يعــود ويجلس بجانب الشاب بانتظار معركة متوقعــة مع ((فتوة الحارة)) . انه يحس ــ الان ــ ان لا مناص مــن خوض هذه المعركــة التي كثيرا ماتجنبها . ورغم انه يعرف ان للفتوة اعوانــا اشداء ــ بينمــا هو وحيد ــ فانه ينتظر المعركة ،ويسالــه الشــاب :

(ــ كيف تنتظر الموت بهــذا الهدوء كلــه ؟
ــ عندما ماتت حل بي تشاؤم غريب .
ــ لم يبد عليك شيء قط .
ــ لا يجوز في عملي ان يبدو على الوجه شيء
ــ يخيل الي انك تتكلم بحزن لاول مرة
صمت التابع مليا ثم قال بنبرة اعتراف :
كانت حبيبتي الوحيدة في الدنيا .. وبها اصتلت نجاحي في هذا الــدرب) .

في نبرة الاعتراف هذه تتكشف لنــا اعماق مأساة الانسان المستلب وتناقضه : نعم له حبيبة ، لكنه تاجر بجسدها ويتخذها وسيلــة للصعود . يهرب من العنف في العالم الاخر ليواجهه على شكل اخــر في عالم المواخير . يهــرب من القمع ليواجه الموت . ليتخلى عن كرامتــه ــ منذ اختار هذه المهنة ــ لكنه لا يستطيع الهرب من الموت بسبــب الكرامة . واذا استعرنا تعبيرا شعريا من عبدالوهاب البياتي قلنا : ان الانسان المستلب هذا (يعيش بالمجان ويموت بالمجان) انــه انسان بــلا قضيــة ، ويندفع الى ((الموت المجاني)) لان وشائجه بالحياة الحقــة مبتوتة اصلا ، والموت الذي يندفع اليه ((موت جسدي)) ، اما ((الموت المعنوي او الروحي)) فقــد حل به منذ بدأ حياته المضطربة متسلحا بمنطق الصفاقة . ان اكتشاف تناقض هذا النمط المستلب يقتــرن فــي هــذه القصة بادانته اخلاقيــا وروحيــا :

ــ كانت حبيبتي الوحيدة في الدنيا .. وبها اصتلت نجاحي فــي هــذا الدرب .

(١٦) يقدم Milan Rucha الاستاذ بمعهد الفلسفة فــي اكاديمية براغ للعلوم ..) فحصا نقديا لمفهوم ((الاستلاب)) لــدى الوجودية والماركسية في مقالته :
Marxim and the exéstenial problem of mon
وهي مثبتة في كتاب
Socialists Humanism , Ed , Erich Fromm , P P . 138
Allen Lane the Penguin Press , London , 1967

(١٧) القصة الثانية في مجموعة ((شهر العسل)) ص ٣٥ ــ ٨٤

ـ ٣ ـ

في قصة « موقف وداع » (١٨) (وأعله من الانسب ان يجعل الكاتب « المهمة » عنوانا لها لولا انه استعمل هذا الاسم عنوانالمحاورة سابقة) .. نلتقي « بالمهمة » و« النسيان » مرة ثالثة . شخصان يفيقان من نومهما ليجدا نفسيهما في الخلاء ، عاريين ، وبلا ذاكرة ولا شيء اخر ، ويشعران «بحاجة ملحة لمقاومة النسيان أو الذهول :

(ـ علينا ان نقاوم الذهول والا ذبنا في الخلاء.

ـ وهو خلاء صامت لن يجيب بحرف ولو سئل الف سؤال) .

وما دام الخلاء صامتا فلا بد من شحذ الذاكرة الهاجعةلاسترجاعها عن طريق الحوار . ويهتديان في البدء الى اسميهما : عبدالقوى، عبدالواحد . ثم الى انهما صديقان فعلا . ثم يتذاكران فيتذكران انهما كانا ماضيين في طريق زراعي فانقض عليهما قطاع الطرق .. وقبل ذلك ؟ يتذكران انهما كانا في ضيافة رجل بدوي .. وهكذا يمضيان في استرجاع الذاكرة الضائعة من السبب القريب الى السبب البعيد فالابعد ، على طريقة « حي بن يقظان » (١٩) في رحلته العرفانية مع انفارق : هنا اثنان يتحاوران ويتناقشان اما « حي » فقد كان يحاور الاشياء من حوله .. كانا اذن في ضيافة رجل بدوي. وقبل ذلك ؟ يتذكران انهما كانا يجلسان في « استراحة » حيث لعبا القمار مع جماعة من الرواد هناك ثم تشاجرا معهم . وقبل ذلك؟ يتذكران انهما كانا في ملهى الزهرة بالمدينة وخاضا معركة مع بعض زبائنه عندما استأثرا براقصة الملهى . انهما اذن في رحلة ماجنة يبدو فيها « عبدالقوى » انسانا يسعى وراء اللذات من غير تقدير للعواقب ، بينما زميله « عبدالواحد » وان كان يتابعه في عبثه ومجونه مضطرا بسبب الوحدة الا انه كما يبدو من الحوار انسان مترو يغمره الندم . وفي خضم محاولتهما استرجاع الذاكرةعلى هذا النحو يقعان على الذكرى الاهم والابعد : انهما مكلفان بانجاز مهمة ، اذ هما عضوان في تنظيم سري . وما هي هذه المهمة :لا يعرفان عنها شيئا لانها كانت مدونة على ورقة في مظروف مغلق سلمه لهما رئيسهما وامرهما الا يفتحاه الا عندما يصلون منطقة معينة في الجنوب .

انهما اذن بعيدان عن العمران ، وبلا ملابس أو نقود ، وبلا مهمة .. ويخلصان الى انهما ايضا مطاردان من الشرطة والتنظيم على السواء . فما العمل ؟ هكذا يدخل النقاش بينهما مرحلةجديدة: يقول « عبدالقوى » : (نحن الذين تقوم بالمغامرة ومن حقنا ان نعرف .. « المهمة المدونة » .. كان علينا ان نرفض ان نكون مجرد آلات) . ان « عبدالقوى » يعي مأساته : ان هو الا آلة في يد تنظيم . لكنه « وعي » عابر يفتقد التأثير الفعلي .فهو اي عبدالقوي يقول بعد قليل : (لقد خسرنا اللعبة ، ومن حقنا ان نتعلق بأذيال الحياة باي ثمن !) انه يعي كونه « أداة » ومع هذا فهو يريد الحياة باي ثمن ولو بشراء مظروف جديد من الرئيس . الانسان المستلب ـ كما قلنا سابقا ـ متناقض ، انه عبد لاهوائه واوثانه ،فهو يقول لصاحبه : (هلم نهرب .. نحن مطاردون ، وسنظل مطاردين ، وخير لنا ان نهب حياتنا للمغامرات الشائعة) .

اما « عبدالواحد » فهو انسان يؤمن بقدرة العقل على اثبات الالتزام : (بالاستقراء والقياس نعرف ما يجب عمله .. ثق اننا سنعرف المهمة .. لقد انقطع ما بيننا وبين التنظيم ، ولئن زالت عنا ولايته فقد وهبنا الحرية .. انها حرية جديدة غير عابثة)، حرية تلتزم بالمهمة (لا تهرب منها ولا تنكرها ، فبدونها تضحى الحياة لا شيء .. بها اكتسب وظيفتي في الحياة وبغيرها لا يبقى لي الا العدم ، ولقد اعتدنا ان نسلم بالمهمة على ثقتنا بالزعيم ، ولكن ليس ثمة فارق كبير ان تقوم بالمهمة لذاتها وبين ان تقوم بها لحساب زعيم مجهول .. اليس هو يقترح المهمة بعقله ؟ حسن ، فلم نتصور ان عقله فوق جميع العقول . .فاذا انقطعت الصلة بيننا وبينه فما علينا الا ان نفكر) .

لكن « عبدالقوي » متعلق باذيال الحياة :(انجاز المهمة قد يكلفنا حياتنا) فيجيبه « عبدالواحد » (علينا أن نختار على ضوء احترامنا لانفسنا) . وتأتي بعد ذلك طائرة « هليكوبتر » وتهبط قريبا منهما وينزل منها زميلهما في التنظيم : « نوح » . انه صامت مبهم ، يقدم لهما ملابس جديدة وبلهجة آمرة يخبرهما انهسينتظرهما في الطائرة ثلث ساعة فقط . « عبدالقوى » هنا ، يحاول ان يقنع صاحبه بركوب الطائرة والتسليم لمحاكمة التنظيم او الهرب وليس من حل ثالث . اما عبدالواحد فيرى ان كلا الحلين استلاب لذاته ،فهو يعايش ـ رغم مأساته ـ « صحوة الذات » لاول مرة في حياته : (لقد عايش في هذا الخلاء جوا جديدا ، وسلمت نفسي لمنطق جديد ، وهيأت ارادتي لحياة جديدة .. لن اطيق بعد اليوم ان اكون آلة صماء .. ساعيد الرحلة من جديد بدءا من المدينة ولكن بعقل متفتح لا يغادر كبيرة ولا صغيرة ، وفي الجنوب ستنبثق المهمة من صميم راسي لا من مظروف مغلق .. لقد جاءت الطائرة من تلك الناحية، فهناك يقع الشمال ، وبالتالي عرفت الجهات الاصلية) . لقد عرف نقطة البدء . وهكذا ينفصل عن زميله بعد وداع قصير : اما « عبد القوى » فيمضي الى الطائرة ليسلم نفسه للتنظيم مرة اخرى ، واما « عبدالواحد » فيشرع من جديد بالبحث عن مهمته .

من التعارض الواضح بين شخصيتي هذه القصة نقع على نمط اخر من انماط الانسان المستلب (عبدالقوى)، وفي نفس الوقت نعثر على نمط جديد ونادر في اعمال نجيب محفوظ الاخيرة والقديمة : انه نمط الانسان المستلب الذي يعود الى ذاته الملغاة ويقضيبذلك على استلابه . وتفحص هذين النمطين خارج اطار القصة وداخلها يتيح لنا كشف مرامي نجيب محفوظ الانسانية والاخلاقية. فالانسان المستلب هنا هو (الانسان الاداة) ، اهوج مندفع الى اللذات العابرة ، يتمرد لكن تمرده انفعالي مؤقت . يعتمد على (أحساسه الباطني) ويرفض المحاكمة العقلية . انه (ابن الساعة التي هو فيها) كما يقول عبدالقوى عن نفسه ، واهم سماته انه يهرب من ذاته باستمرار رغم وعيه بمأساته ، ويظل سالكا طريق الهرب حتى حينما يسلم نفسه للتنظيم مرة اخرى .

اما الانسان الذي يريد استرجاع ذاته المستلبة وحريته الملغاة (عبدالواحد) فيؤمن بقدرته الذاتية وقدرة عقله على تمحيصالمعطيات واستنباط النتائج منها والوصول الى دوره الحق في صنعها او تغييرها .انه يرى في الالماعات والملابسات العارضة نداء ودعوة : فزميله هو الذي ادرك ضرورة رفض الآلية التي تحولا اليها : (كان علينا ان نرفض ان نكون مجرد آلات) ، لكن الذي يرفض فعلا ـ وهنا المفارقة ـ ليس هو الذي يدرك انه آلة فحسب . وانما هو (عبدالواحد) الذي يعي ويريد في الوقت نفسه . فالتحام الارادة بالوعي (ومن ثم بالفعل) هما طريق الخلاص من الاستلاب وهذا ما يفعله « عبدالواحد » في خاتمة المطاف . وهنا نلمح في شخصية

---

(١٨) القصة الخامسة من مجموعة « شهر العسل » : ص ١٥١ـ١٨٤

(١٩) اذكر انني حضرت ندوة لنجيب محفوظ ـ بمناسبة اسبوع الكتاب العربي .. في « معرض الجزيرة » في اواخر عام ١٩٦٢ ـ ومما قاله فيها جوابا على احد السائلين : ان « حي بن يقظان » ـ لابن طفيل هي اروع قصة عالمية بالنسبة لعصرها .

« عبدالواحد » قسمات باهتة من الفلسفة الوجودية ، فهو يقول : (علينا أن نختار على ضوء احترامنا لانفسنا) و (اني ارفض المحاكمة، ارفض المهمة داخل مظروف مغلق ، ارفض النجاة الرخيصة ، الاختيار ارفض العقوبة داخل مظروف مغلق ، ارفض النجاة الرخيصة) ،الاختيار والرفض ، وقبل ذلك الحرية والمهمة مقابل العدم . وقد نتسرع فنقول: انها فلسفة سارتر تتكلم من خلال عبدالواحد . وخاصة اذا تذكرنا ان سارتر قد عالج موضوع الانسان الذي يتحول الى اداة في يد تنظيم حزبي في مسرحيته :« الايدي القذرة » (٢٠) .

لكن سارتر يجعل حرية الانسان وقدرته على الاختيار مطلقة وغير مشروطة بدافع او قيمة قد قررت سلفا ويربطباللامعقول. بينما نجيب من خلال بطله « عبدالواحد » يجعل الرفض والحرية والاختيار ـ كلها ـ خاضعة للعقل واحترام الذات ، بل ان هذه النقطة هي اكثر الابعاد الفلسفية وضوحا في القصة . ان نجيب هنا مع الفلسفات العقلية (ليبنتز مثلا) التي تجعل الصلة بين العقل والحرية صلة وثيقة .

رفض الاستلاب ، فالحرية ، فالبحث من جديد عن « المهمة » على اساس من العقل هي ابعاد الانسان الذي يريد ان يكون ذاته ،وينجز مهمته في عالم ـ كل العالم ـ يجعل من« الخوف » الها جديدا يعبدفي كل وقت . لكن هذه الابعاد يجبانتخضع للعقل والا انقلبت «صحوة الانسان » الى انتفاضة انفعالية فوضوية يصبح « الكل » ازاءها عدوا وجحيما . ولقد صور لنا نجيب هذه الصحوة الانفعالية في قصة (عنبر لولو) (٢١) : عضو في وفد رسمي يدعى الى زيارة الجبهة ومعسكرات اللاجئين وعندما يعود الى القاهرة يصعد الى برجها ويطلق النار في جميع الجهات .

لنعد الى « عبدالواحد » حيث تركناه في الخلاء يبحث عن مهمته . ان قدره ماساوي حزين . لكن لا بأس فهو يفي ذاتهكانسان قدر عليه ان يحمل « الامانة » التي ابتها الجبال . يختتم كاتبناقصته الرائعة بهذه الجمل تعبيرا عن حال عبدالواحد بعد ان تركه صاحبه :

(وجد نفسه وحيدا . وجد نفسه حزينا . ولكنه لم يبدد دقيقة من وقته سدى . شحذ ارادته لينفض عن قلبه الحزن . قلّب وجهه في الجهات الاصلية ليحدد طريقه الى العمران . سار متجها نحو الشرق) . اي شرق؟ اهو مجرد اتجاه في المكان (ولم لا يكون الشمال وهو الجهة التي اتت منها الطائرة ، وهو ايضا جهة العمران) ام انه اتجاه فكري ؟ وفي هذه الحالة ما الذي يرمز اليه الشرق ؟ بكين ام يثرب ؟ الشيوعية ام التراث الاسلامي ؟ وعند هذا السؤال كان نجيب يتوقف بلا جواب محدد في روايتين سابقتين هما : القاهرة الجديدة . والسكرية . لكن السؤال ملحّ : اين يجد الانسان حقيقته وقوته في مواجهة العبث والانكسار والتمزق ؟ اكاد اقول ان نجيب محفوظ بعد النكسة قد وقف على ارض الجواب بعد حيرة . ففي مسرحيته « يميت ويحيي » (٢٢) يصر « الفتى » الذي يواجه عدوا هازئا يهدد وجوده .. يصر على ان (الوراء هو الامام) وان الاموات (احياء ما دمنا احياء .. والا فقد ادرك الفناء كل شيء) وان للتاريخ انفاسا تحترق حزنا على ابنائه المذبين بالانكسار . وفي نهاية المسرحية نكتشف انه تاريخ يصحو ويدافع عن حشاشته فيقاتل الى جانب الفتى الذي اصر على الدفاع عن (ينابيع الحياة الحقة) . انه تاريخ ميت او ثاو بلا مبالاة ،لكنه تاريخ حي ثائر اذا اراد الفتيان مواجهة التحدي الكبير .

ـ ٤ ـ

الى هنا نكون قد استوضحنا من اعمال نجيب محفوظ التي كتبها بعد النكسة خمس قصص ومسرحيتين قصيرتين عن معضلة الانسان المستلب ، في نسيانه لمهمته وفي بحثه عنها ، في تخليه عن ذاته ومحاولته استرجاعها . واذا اردنا تشكيل صورة شمولية تنتظم كل انماط الذات المستلبة التي توصلنا اليها من خلالفحصنا لشخصيات القصص السابقة قلنا : ان الانسان المستلب على تباين انماطه في تلك القصص هو انسان احادي البعد : يهتم كل الاهتمام بتكييف حياته وتحقيق احتياجاته اليومية . ومهما يكن عمله ـ شرطيا كان ام « تابعا » ام عضوا في تنظيم سياسي ـ فهو « الانسان الاداة » ؟ انه في واقع حقيقته « وسيلة » او « شيء » وليس « ذاتا انسانية » . انه انسان هارب من ذاته ، او من مجتمعه او من مهمته الحقة . انه لا يؤمن بقدرته الذاتية فهو عاجز عن المباداة في وجه التحديات .. لانه قد تخلى عن حريته وفقد الايمان بقدرته على التغيير والخلق . انه صاحب منطق خاص ، منطقمتناقض يخضع للنزوات والاهواء ، او يتمشى مع القسر وضغط الظروف الخارجية على درب واحد . ان الانسان المستلب لا يؤمن بشيء ، وان آمن ببعض القيم فيظل هذا الايمان عرضة للاهتزاز والنسيان او عرضة للمساومة فالتنازل في ظروف الشدة والامتحان .

واذا قلبنا هذه الصورة ـ مع اخذ شخصيتي « عبدالواحد » و« الفتى » (٢٣) ، بالاعتبار ـ نصل الى مفهوم نجيب محفوظ الانسان الحقيقي : انه الانسان المتحرر من سطوة الاستلاب ، انسان الحقيقة والارادة والفعل .. انه الانسان الذي يفي ذاته ولا يتخلى عن مسئوليته، وهو سيد مصيره : يرى ـ من غير قسر خارجي ـ ان التمسك بالحرية والالتزام اجدر به من توخي الامن المزيف في ظل الخوف . انه يختار لكن على ضوء محاكمة العقل ونقده لا على اساس ما توحي به الاهواء . لا يستسلم لليأس والعبث وانما يواجه التحديبكل ما فيه من قوة العقل والجسم . انه انسان « متجذّر » في التاريخ، يجد فيه ما يضيء له حقيقته كفرد ومسئوليته كعضو في مجتمع . وهو بهذا يضفي على التاريخ معنى واتجاها . انه انسان واقعي (اي يجابه واقعا من خلال معطيات الواقع ذاته) لكنه لا يتنازل عن (اشواق القلب الخالدة) ، فهو « روحاني » في واحد من ابعاده الخصبة.

هذه الملامح العريضة للانسان المستلب فالمتحرر هي التي تشكل المضمون الفلسفي لبعض انتاج نجيب القصصي في مرحلته الجديدة. وهذه الملامح تختلف ـ قليلا او كثيرا عما يماثلها لدى المفكرين الاخرين الذين اهتموا بمشكلة « الاستلاب » ، والحق ان هؤلاء « الاخرين » يختلفون ايضا في تصورهم وتجسيدهم لابعاد هذه الظاهرة البارزة في عصرنا الحديث وفي المجتمعات على السواء . ومما يخرج عن اطار هذا البحث ان نستطرد في ذكر هذه

---

(٢٠) ترجمها الى العربية : سهيل ادريس واميل شويري .ونشرتها دار العلم للملايين ـ بيروت . طبعتها الثانية كانت سنة ١٩٥٩ .

(٢١) القصة الاخيرة في مجموعة : حكاية بلا بداية ولا نهاية » : ص : ٢٤٥ ـ ٢٨٤ .

(٢٢) المسرحية الاولىفي مجموعة : تحت المظلة » : ص١٢٩ـ١٦٨.

(٢٣) المقصود « فتى » مسرحية « يميت ويحيي » من مجموعة « تحت المظلة » .

الاختلافات (٢٤) . حسبنا القول أن الصورة العامة التي قد يلتقون عندها هي ان الانسان المستلب هو انسان لا يفي ذاته بكل ابعادها. وسنكتفي بايراد صورة موجزة وواضحة للانسان المستلب كما ترسمها لنا المفكرة الفرنسية « ما تيلدانيل » Mathilde Niel التي كرست سني عمرها الاخيرة لبحث هذا الموضوع . ونترك للقارىء مهمة المقارنة التفصيلية بينها وبين نجيب محفوظ في هذه المشكلة . تقول:

« الانسان المستلب : يفشل في ان يكون ذاته ، ويفشل في ان يعيش دورا خلاقا في علاقته مع الاخرين والاشياء . انه لا يعيش في الحاضر الذي يفشل في تقدير خصوبته ، انه مهتم بالمستقبل فحسب، المستقبل الذي يقوده الى البحث عن نوع من المطلق .. الانسان المستلب لا يفكر او يعمل بحافز من ذاته ، انه يرجع على الدوام الى شيء او شخص خارج ذاته : كالتقاليد او الدين او الايديولوجيه ..انه لا يعرف كيف يعيش في حوار مع الاخرين او في أمن داخلي (مع ذاته) . انه على الدوام بحاجة الى اخر ليعبده او يخدمه ،ليكرهه أو يحاربه . انه يقضي حياته يسعى ويلهث وراء شيء ما : غاية مادية تتحول لديه الى غاية مطلقة (مثل تشهي الثراء او الرفاهية او رموز الهيبة والمكانة Symbols of Prestige او يقضي حياته ساعيا وراء غاية روحية تجعله يزدري الحياة والعالم . ان حياته لهذا السبب تتراوح بين النجاح والاحباط فهو يصرفها في الاشتهاء والتوقع واليأس والتقديس والازدراء . الانسان المستلب متوتر وقاس، ضيق الافق ولا يتسامح ، انه صاحب اهواء تحكم حياته . انه يخاف المسئولية ويخشى أن يكون مستقلا في تفكيره وعمله . انه انسان هياب جبان ممتثل لاتجاه غالبية الناس ».

... اما الانسان المتحرر Liberated فيتميز بانه كريم ومحايد ومبدع . انه يستطيع ان يعبر عن شخصيته ومواهبه ـ من غير ان يكون مكرها على ذلك ـ في منجزات يدوية او فكرية او فنية او في علاقاته مع الناس الاخرين . الانسان الحر هو الذي يحس انه في ذاته وفي نفس الوقت يكون على انسجام مع الاخرين. انه فرد متحرر من الاوثان idols او الاعتقاد الدغمائية او الاهواء المتحيزة او الافكار المسبقة . انه متسامح ويستلهم حسا عميقا بالعدل والمساواة ، وهو ـ بعد ـ يعي نفسه كانسان متفرد وعالمي في نفس الوقت » . (٢٥) .

هناك نقاط تشابه واضحة ، وهناك نقطة اختلاف ظاهرة بين تصور نجيب ونيل للمشكلة . فابقاء البعد الروحي في الانسان هو تحرر في رأي نجيب لكنه استلاب في رأي السيدة نيل . وهذا الخلاف يرجع في بعضه الى تاثير الاطار الحضاري الذي يتموضع فيه كل منهما : فنيل تتكلم عن الانسان كما هو كائن وكما يجب ان يكون في مجتمع تكنولوجي ، ويبدو انها تستلهم « فيورباخ »و « ماركس » (وقد ذهب الى ان « الله » صورة فكرية استلابية صنعها الانسان وغرّب فيها كل صفات النبل والخير من ذاته). بينما يستلهم نجيب مفهومه للانسان من خلال الفلسفة الكلاسيكية (وهذه النقطة لم توضح بشكل وافٍ في هذا البحث) ويشربه اوضاع الانسان العربي وجروحه وتطلعاته : وهذا ما يبدو لنا جليا وواضحا في بعض قصص « تحت المظلة » ، ومتضمنا خفيا في القصص الاخرى.

لقد كتب نجيب محفوظ في « قصر الشوق » : « مواجهة القاتل بالقتيل فن » ، وهو في اكثر قصصه اتجديدة يبين لنا ان القاتل والقتيل أن هما الا شخص واحد : انه الانسان هو المسئول عن نسيانه ومهمته وحريته المهدورة . ودور النظام الاجتماعي السياسي في هذا التضييع المستمر للانسان ؟ ـ انه دور مبهم ، وربما يكون الجواب الصحيح انه ليس من العدل ان نطلب من القصص أن تقدم لنا نظريات متكاملة او منظومات فلسفية شاملة تحاول تفسير كل شيء . فالقصص لا يمكن ان تكون تنظيرا وقصصا في آن واحد . وكل ما نستخلصه من كل او بعض القصص السابقة الذكر ان الفكرة المسيطرة على الكاتب « هي أن الإنسان يملك ان يناضل ليسترجع ذاته المستلبة وليعيش وجوده الحق . وما الذي يريده الانسان بهذا الاسترجاع ؟ نجاة فردية للانسان عن طريق جهده الذاتي ؟ وهل يستطيع الانسان بمجرد ان يمتلك ذاته ويهتدي الى مهمته أن يمارس حقه في الرفض والاختيار والخلق ؟ وكيف يتيسر ذلك ما دامت الانظمة ـ في الشرق والغرب وفي كل مكان ـ قد كرست القمع وبنت حواجز الارهاب التي تقف شامخة (ويتزايد شموخها)في وجه كل حق للفرد في النقد الجدي والرفض والاختيار ؟ وما فائدة مثل هذا الخلاص لفرد او لعدة افراد اذا كانت قوى التغريب والاستلاب ستظل مسيطرة على غالبية البشر في هذا العصر العجيب. عصر الهوان المزوق بالاقنعة الملونة ؟ ـ لا نجد ارضية للجواب على مثل هذه الاسئلة في تلك القصص ، وانها لمهمة رجال الفكر والعلوم الانسانية ـ لا الادباء ـ ان يحاولوا حل هذه الالغاز الموجعة المستعصية.

ومن الواضح ان هذا البحث لم يتناول الا قصصا معدودة من اعمال نجيب محفوظ الاخيرة لانه اقتصر في معالجته على موضوع واحد هو (الاستلاب ونسيان المهمة) (٢٦) . وقد الحت في هذا البحث على المغزى الفلسفي والاخلاقي لهذه الاعمال ،وهذا الالحاح لن يرضي الذين يرون في الفن رؤية جمالية تخلق او تختصر او تترجم واقعا نفسيا معاشا ، وهذه الرؤية تفسدها المواعظ والمرامي الاخلاقية . نعم ، كثيرا ما تؤذي دعاوي الاخلاق الفن في صميم طبيعته . لكن تفرد نجيب محفوظ عن غيره يكمن في هذه النقطة: لقد استطاع بعمق رؤيته ، وبصنعته المتجددة على الدوام ، المتجاوزة باستمرار لمقولات النظريات النقدية الجاهزة .. استطاع ان يكون فنانا عظيما ومناضلا مثابرا في الوقت نفسه . وقد اثبت ـ منذ ان نشر ثلاثيته العظيمة ، منذ سبع عشرة سنة والى اليوم ـ انه قادر على ان يثير فينا جروحنا العميقة التي تغفو في اغلب الاحيان تحت قشرة سميكة من التعود والاضطرار . ان نجيب يكتب بدمه وعقله معا ، ومن وراء سجف الكآبة والعذاب التي تشتمل على اكثر شخصياته تتبين ـ رغم ذلك ـ بصيص نور متاح للانسان الذي يعي مأساته ويريد القضاء على اسبابها . وبهذا فان قراءة نجيب محفوظ دائما . وحتى في قصصه الفلسفية الجديدة ـ تظل تخلق فينا املا ولذة ومعرفة وارادة في آن واحد .

ا . ن . ذياب

---

(٢٤) نحيل القارىء الراغب في الاستزادة في مشكلة « الاستلاب » ونشأة هذا المصطلح وتطوره ، واختلاف المفكرين المعاصرين بصدد هذه المشكلة الى مقالة G . Petrouic (انظر الملاحظة «١٢») وفي ختامها ثبت بالكتب المهمة في هذا الموضوع . والى كتابات E . Fromm (انظر الملاحظة « ١٥ ») وفيه ثلاث مقالات تتناول المشكلة من وجهات نظر مختلفة . والى كتاب هربرت ماركوز : (الانسان ذو البعد الواحد) . ترجمة : ج. طرابيشي . دار الاداب بيروت ط ٢ ، سنة ١٩٧١ .

(٢٥) Mathilde Niel : the Phenomenon Technology Liberation or Alienation of man , PP . 310 - 11

وهي مقالة من مقالات كتاب E . Fromm (انظر الملاحظة «١٥») وفي الاصل هي محاضرة القتها الكاتبة في السوربون في ٢٤ نوفمبر ١٩٦٢ .

(٢٦) في نية الباحث ان يعود مستقبلا ليتناول معضلة (الموت والحياة واليقين) من خلال القصص الاخرى في هذه المرحلة .